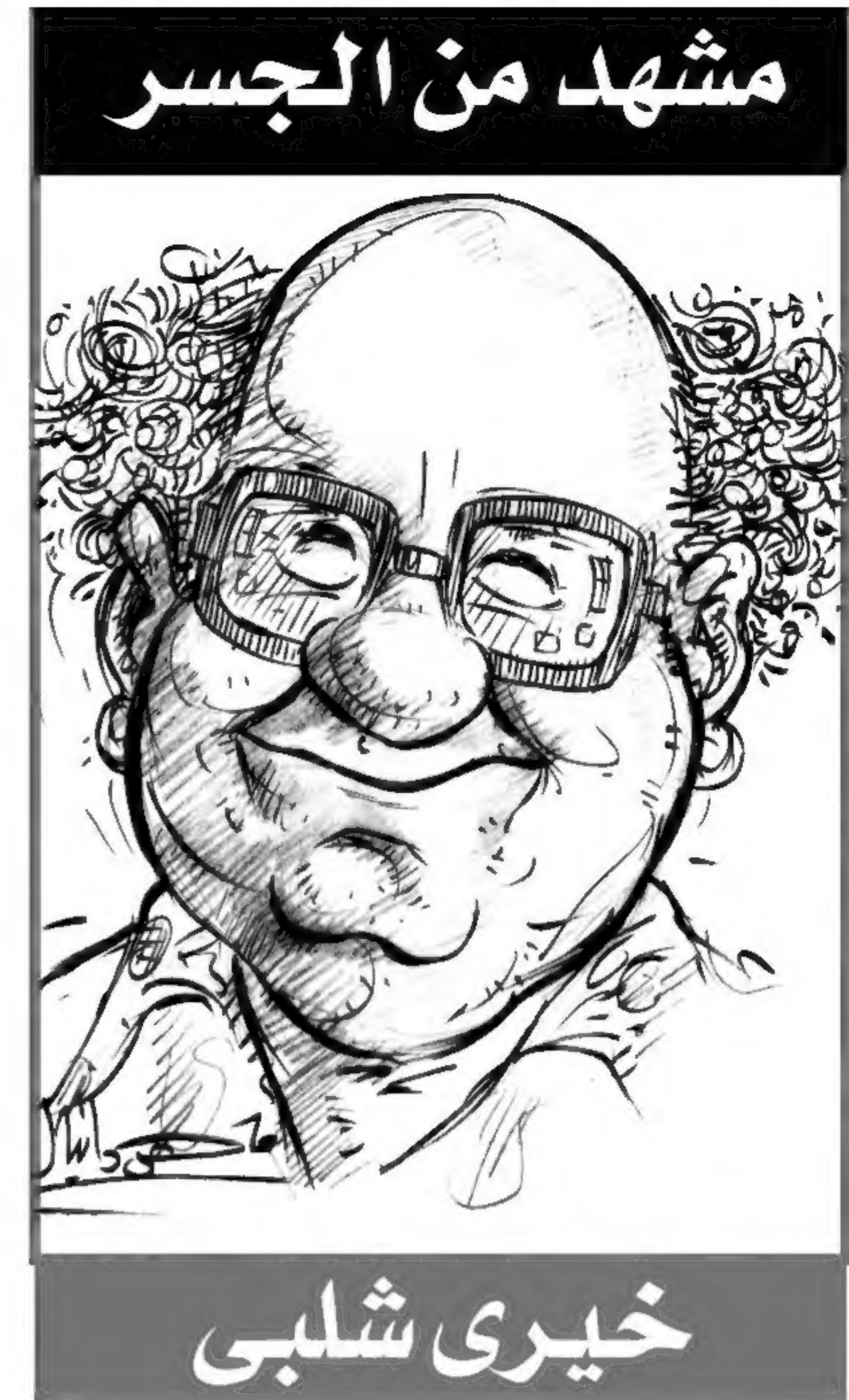


# الاشتياق ليلية حائكة



خيرى شلبى

كشافه على السماء فى قرطاس ضوء عمودى يخلق فى السماء ويراه الناس فى شرق وغرب وشمال وجنوب البلدة حتى اختلطت عليهم الأضواء. ثم إن العمدة سرعان ما فطن إلى أن لئله هذا الكشاف الكهربى ضرورة أمنية، يستطيع هو أو شيخ خفرائه أن يسلط عموده الضوئى على حقول الذرة والقصب فيجوس الضوء خلل الأعواد يكشف فيه عن قطاع الطرق والمجرمين واللصوص، وكذلك فى حوارى البلدة المظلمة وخرائبها الكثيرة ومقابرها حيث يقع الفسقة الفجرة، سيما وأن حوادث فش أقال الدكاكين وسرقة المحاصيل وخطف البهائم كانت منتشرة فى البلدة، وبخاصة فى النصف الأخير من الشهور القمرية، حيث تغطس البلدة فى أعماق بئر سحيق من ظلام دامس لا يجرؤ على اختراقه إلا ذو قلب ميت. فلما فكر العمدة فى شراء كشاف مثله، وعلم أن ثمنه جنيه كامل يشتغل به عامل زراعى فى الحقول شهرا بأكمله، نزع الفكرة من رأسه ثم ما لبث حتى امتدح الظلام باعتباره لباس الستر الذى أراده الله سبحانه لعباده من بنى الإنسان - الستر حلو برضه يا اخوانا ! فى نفس الوقت كثيرا ما كان ينتظر قدوم... عبدالقادر عصر الخميس لقضاء إجازته الأسبوعية فى البلد، فيستلف منه الكشاف لمدة ساعة أو ساعتين نظير قرش أو قرش ونصف مساهمة فى ثمن البطارية، لكن عبدالقادر كان يقول له: «خلى عنك يا عمدة!» ولا يأخذ شيئا، وفى ليلة استدعاه بصنعة لطافة بروج الإخوة والصداقة واضعا فى اعتباره أن عبدالقادر مبروك وإن كان من مواطنيه فإنه تمورجى، يعنى يجيد القراءة والكتابة، يعنى أنه موظف حكومى محترم ولا يليق أن يعامله معاملة الفلاحين الجهلة والأجراء التافهين، ثم إن عبدالقادر يستطيع الرد على العمدة وإفحامه إذا هذا تحداه، بل يستطيع مقابلة المسئولين فى البندر وتقديم ما يشاء من الشكوى، وسوف يستمعون إليه باحترام شديد، على الأقل لأنه تجىء من ورائه خدمات يحتاجونه فيها كضرب الحقن والتغيير على الجروح والإسعاف بأى شكل. استدعاه العمدة بصيغة عزومة على كوب من الشاي على مصطبة الدوار الداخلة فى حديثه الخلفية. بعد أن شربا ثلاثة أدوار من الشاي طلب العمدة من عبدالقادر أن يعيره الكشاف لمدة خمس دقائق فقط، ماشى يا عمدة، لكنه وهو يسحبه من سيالته ويعطيه له ضحك ضحكة زنجية مصلصلة برقت منها عيناه القويتان الناصعتان فى بشرته السوداء، ضحكة متقطعة يدارى بها حرجه ويحاول إكمال عبارة: «بس وحياة والدك البطارية قربت تخلص!



يعنى من غير مؤاخذه ما تفتحوش عمال على بطال!» صاح فيه العمدة باحتجاج اصطناعى لطيف: «ذلنا بقى! إياك فاكرك إن ربنا حوجنا ليك! أنا على فكرة أقدر اشتري عشرة عشرين من كشافك ده بس خايف من الحرمانية!» ثم أعطاه ظهره ومضى ممسكا بالكشاف متوغلا فى حديثه المترامية الأطراف على مساحات بعيدة يلفها ظلام مركب شديد الكثافة حيث تبدو الأشجار العتيقة الكثيرة المتجاورة كتلال من ظلال تمجد كتلج المحيط المتجمد الذى نذاكره فى دروس الجغرافيا. تجلجل ضحكة عبدالقادر مبروك وهو جالس وحده فوق المصطبة

تحت أشجار حديثه الكثيفة المخيفة، إنه يتحرق شوقا لأن يمسكها بيديه متلبسة، لا ليقبض عليها وعشيقها ويبعث بهما إلى قسم شرطة البندر لكى تعرضهما على النيابة بتهمة الزنى، بل ليكسر عينها فحسب، فلعلها تستسلم له عندئذ تعاضمت ضحكات عبدالقادر حتى كتמהا فى صدره خشية إيقاظ النيام، فصار جسده يهتز وينتفض من فرط السخرية من جنون العمدة المغفل، وكانت رعشة الخوف تهجس فى صدره بتوقعات مخيفة: أه لو علم العمدة أن هذه الشائعات صحيحة مائة فى المائة، أه لو علم العمدة أنه هو - عبدالقادر مبروك - بطل هذه الشائعات الأوحدا! أنه هو الوحيد الذى نال من سبيلة ما لم يئله أحد، وأنه يحرص على المجيء كل خميس من أجلها، وأنه الليلة أنهى مهمته معها فى حديقة العمدة فى عشة مسقوفة بيتت فيها المعيز والخرفان أيام كان عند العمدة معيز وخرفان، وأن ذلك تم قبل مجيئه إلى العمدة بدقائق حتى إنه لم يجد وقتا ليستحم.

عصر اليوم التالى - الجمعة - كان عبدالقادر يجلس مع أبى فى مندرتنا بدعوة من أبى الذى قال له إنه يريد أن يكلمه على رواقه فى موضوع مهم، مع أنهما سيلتقيان فجرا على السكة الزراعية فى طريقهما إلى محطة القطار على مبعدة ستة كيلومترات من بلدتنا، ليركب عبدالقادر إلى دسوق، ويركب أبى إلى كفر الشيخ، وحينما راح عبدالقادر يحكى لأبى حكايته مع العمدة والبنت سبيلة - دين أن يفطن إلى وجودى - راح أبى يضحك بعقم دون صوت وهو لا يعنى يسبق عبدالقادر بنظرات ذات معنى. وكنت أعرف السبب وراء هذه النظرات، فلقد رأيت ناسا كثيرين ينفردون بأبى فى المندرة ويشتكون له مر الشكوى من أفاعيل عبدالقادر وكشافه، شئ يقشعر منه بدنى: إنه فى ليلتين من كل أسبوع يقضى النصف الأخير من الليل متجولا فى الظلام فى أماكن معينة لا تخطر على البال، فيسلط كشافه فجأة على عاشقين يختلسان وصلا فى أطلال قديمة أو بين الجنابن وفى العيش المبنية فى الحقول القريبة، قد يعثر على بهائم مسروقة لتوها يتم التفاوض بشأنها بين السارقين، أو على لص بأش يتسلل جنب الحيطان.. عندئذ يدخل شريكا فى الصفقة، لا بد أن ينويه من الحب جانب مقابل كتمان الفضيحة، وهو لا يعتق من يقع تحت كشافه الفاضح، يضاجع فى الحال، يأخذ حقه من السرقة ناشفاً، أى نقوداً.. وفى كل شكوى كان أبى يعلق بأنه لا يستطيع أن يفاتحه فى مثل هذه الأفاعيل، لا بصراحة ولا بالموروب. إلا أننى كنت أعرف لماذا دعاه أبى هذه الليلة إلى الشاي فى المندرة: لقد اقتنع أبى أنه أحوج الناس فى بلدتنا إلى مثل هذا الكشاف، فأبى تاجر عطارة وأعشاب طبية، يفرش بها فى أسواق الناحية، يسافر خمسة أيام فى الأسبوع، كل يوم فى سوق بلدة مجاورة، مما يحتم عليه الاستيقاظ قبل أذان الفجر بقليل، يذهب من فوره إلى المسجد يصلى الفجر جماعة، يعود فيجد أمى قد جهزت له خرج البضاعة والركوبة وكيساً به بعض أطعمة جافة، يركب متوكلاً على الله هو محتاج للكشاف يضئ به الطريق إلى المسجد حتى لا يدوس فوق الكلاب النائمة فى الحوارى الضيقة الدامسة ولا يتعثر فى الحفر والدروب الملبئة بالفخاخ، ثم إن الظلام كثيراً ما يبقى يضرب السماء والطراقات الزراعية بالشبورة، بل إن معظم هجمات قطاع الطرق على التجار

المسافرين تتم فى مثل هذه اللحظات الساكنة الهاجعة، وهو- أبى- محتاج إلى الكشاف ليسلطة فى عينى من يداهم فى الطريق إلى أن يستعد له بالمواجهة المسلحة، لكل هذا قال أبى لنفسه بصوت سمعناه «ملعون أبو الجنيه اللى يندفع فى الكشاف ده! مائة قرش ليست خسارة فيه!» وهكذا فتح حصالة خاصة جعل يدخر فيها كل يوم ما تيسر من الفكة حتى اكتمل الجنيه، وها هو ذا قد استدعى عبدالقادر ليعطيه الجنيه ويكلفه بشراء كشاف له مثل كشافه بالضبط بنفس الحجم.

عبدالقادر مبروك لا يستطيع التلاعب بأبى لأننا جيران الحيط فى الحيط، وهو طول عمره يخشى بأى أبى ويعمل له حساباً. فى مساء الخميس التالى طرق باب المندرة ودخل قدم لأبى الكشاف فى علبه من الورق المقوى. فى الحال حضرت العائلة برمتها، جاءوا يتفرجون، لم يتنازل أى فرد منهم عن حقه فى الإمساك بالكشاف وإضاة وإطفائه حتى صرخ فيهم عبدالقادر «كفاية حتخلصوا البطارية» فانتزعه أبى ودسه فى دولاب الحائط خلف ظهره.. حينذاك كانت أفاعيل عبدالقادر قد فضحتها روائحها وبات الناس يتداولونها كحقائق مؤكدة، لكن أبى الذى سئم من الشائعات ومن الشكاوى كان قد أصيب بإحباط شديد من فرحة ما تمت. ففى فجر ذلك اليوم بكر أبى فى النزول شاهراً الكشاف فى يده، فإذا به يكتشف أن القمر ساطع فى السماء يغمر الأرض بنوره، كنا إذا فى بداية الشهر الهجرى فيهاها من مصادفة سخيفة كل ليلة ينزل أبى بالكشاف فلا يجد ثمة من داع له على الإطلاق حتى داخل مراحيض المسجد يطولها القمر من فوق وتحت أبوابها القصيرة من شدة غيظه كان أبى يصيح- وحده أو بين أصحابه فى المندرة- بحركة حقيقية تفجر الضحكات فى الصدور «يعنى القمر متشمل قوى الشهر ده طب يا أخى- يقصد القمر- حط فى عينك حصوة ملح وجاملنى ليلة سودة أفش فيها غليلي وأمتع بنور الكشاف اللى دفعت فيه جنيه بحاله!» ولقد جاءت الليلة السوداء بالفعل، أول ليلة غاب فيها القمر، كانت شكاوى الناس قد كثرت وقويت بانضمام العمدة وقيامه بإبلاغ النيابة- نيابة عن أهل بلدته- أن فى البلدة كشافاً يتجسس على خلق الله ليفضحهم ثم يبتزهم وكان عبدالقادر قد سافر إلى بندر دسوق صباح ذلك السبت الذى كان ليلة بلا قمر ليلتها نزل أبى ملهوفاً قبل أن يتبدد الظلام، قفزت من الفراش وسرت فى أعقابها. الطريق إلى المسجد فركة كعب، لكن أبى أراد أن يستمتع بالظلام أطول مسافة ممكنة، أثر الذهاب إلى المسجد عبر طريق داير الناحية، كأنه يريد أن يأخذ حقه كله من ضوء الكشاف فى هذه الليلة، كان كأنه الطفل لا أنا. ثم إذا بالفرجة الكبرى تدهمنا على رأس الطريق الفاصل بين البلدة والغيطان: نصف دائرة من الأشباح سدت علينا الطريق، حاصروننا، قال الضابط: «أهلا أهلا! جيت برجليك يا حلو! رايح تبتر مين الساعة دى يا ترى!» قبضوا على أبى، وعدت إلى الدار أصرخ متخطيا فى الظلام.

لا أدري كم من الشهور والسنوات أمضيهاها فى نكد وشحطة فى المحاكم وأقسام الشرطة كم صرفنا من رشاء، ناهيك عن العطل ووقف الحال، لكننى أصبحت أنزعج بل أرتعد إذا أضى النور فجأة أو انطفأ لأى سبب من الأسباب ■